صفحات من تاريخ الاستشراق

— ٤ —(١)

المستشرقون وسيرة الرسول

إن حياة الرسول محمد (ﷺ) وشخصيته وتعاليمه كانت دوماً تحتل المقام الأول بين الموضوعات التي يعالجها المستشرقون . ومازال علماء الاستشراق حتى عند البحث في تاريخ العرب الحديث يرجعون إلى شخصية الرسول وتعاليمه التي أحدثت ثورة من أعظم الثورات في العالم والتي مازالت آثارها ملموسة في حياة العرب والمسلمين .

لقد ظل الأوروبيون في القرون الوسطى ، وحتى القرن السابع عشر ، يتناقلون أسخف الأساطير عن الإسلام ، ويوجهون إلى مؤسسه أبشع المسبات والشتائم . ومنذ أن بدأ الاستشراق بالمعنى العلمي نرى الباحثين الغربيين يتظاهرون بأنهم قد تحرروا من التعصب الديني ، ويدعون أنهم يريدون معرفة سيرة محمد كما يرويها المسلمون أنفسهم . ولا شك في أن بعض الكتاب الغربيين قد أخذوا منذ القرن الثامن عشر يتحاشون التهجم على شخص الرسول ويحاولون التزام العدل والإنصاف في الحكم عليه . ولكن لا بد من الاعتراف أيضاً بأن أكثر المستشرقين ظلوا دوماً يقصدون تشويه الحقيقة وطمسها .

وسيتبين لنا ذلك من استعراض أهم دراسات المستشرقين عن حياة الرسول منذ القرن السادس عشر حتى الوقت الحاضر .

---

(١) تراجع الأقسام الثلاثة الأولى من البحث في أجزاء المجلد الأربعين من المجلة .

غليوم بوستل :

ولنبدأ بالمستشرق الفرنسي (غليوم بوستل Guillaume Postel) (١٥١٠ — ١٥٨١) الذي كان يدرّس العربية والعبرية واليونانية في جامعة (باريس) . وهو أول مستشرق ألف كتاباً في قواعد اللغة العربية .

كان (بوستل) يعد من أعلم رجال عصره : يدعي معرفة لغات شرقية عديدة ويقول إنه يستطيع أن يجوب كل البلاد حتى الصين دون حاجة إلى ترجمان . وقد سنحت له الفرصة ليتصل بالمسلمين مباشرة وأن يعيش بينهم إذ كان أحدَ أعضاء الوفد الذي أرسله الملك (فرانسوا الأول) في سنة ١٥٣٤ لمفاوضة السلطان (سليمان القانوني)، وطلب مساعدته ضد الامبراطور (شارلكن) . فإن (فرانسوا الأول) ، ملك فرنسا ، الذي تأثر بمبادىء ما يسمى « بالحركة الإنسانية » في عصره ، قد أدرك قيمة العلاقات الثقافية مع الشرق وفائدتها في دعم مصالح بلاده الاقتصادية والسياسية ، ولذلك أوفد بعض العلماء إلى (استانبول) وإلى سـورية وفلسطين لدراسة أحوال السكان ولشراء المخطوطات الشرقية .

وقد اقتنى (بوستل) مجموعة غنية من المخطوطات الشرقية . وهذه المجموعة هي التي اشتراها فيما بعد الأمير الألماني (فريدريك الثالث) ووضعها في مكتبة (هايدلبرغ) ، فأصبحت الأساس الذي قامت عليه الدراسات الشرقية في ألمانيا .

ومن مؤلفات (بوستل) كتـابه « عن جمهورية الأتراك »

(De la Republique des Turcs) (Poitiers 1552)

في القسم الأول من هذا الكتاب يصف المؤلف حياة الرسول (ﷺ) بالاستناد إلى القرآن والحديث وحسب ما جاء في كتب المسلمين ، وذلك ، كما يقول ، لاعتقاده بأن أحسن وسيلة للتغلب على المسلمين هي محاربتهم

بأسلحتهم هم أنفسهم . وفي الحقيقة لم تكن غاية (بوستل) الدراسة العلمية المجردة وإنما مكافحة الإسلام . لذلك نراه ينتقل في القسم الثاني من الكتاب إلى عرض حياة محمد (ﷺ) من وجهة النظر المسيحية . ثم يلخص في القسم الثالث تعاليم الإسلام ويشير إلى الأمور المقتبسة عن اليهودية والمسيحية ، ويتكلم أخيراً على الفرق الإسلامية ، وعلى طقوس دفن الموتى عند المسلمين .

كان (بوستل) يعلن أنه يستطيع البرهان على صحة العقائد المسيحية بالاستناد إلى العقل والفلسفة . ويبدو أنه كانت لديه تصورات ومشروعات خيالية تهدف إلى التوفيق بين اليهود والمسيحيين والمسلمين ، وتوحيد جميع الأديان في ديانة واحدة هي المسيحية . على أن آراءه هذه قد أثارت سخط رجال الكنيسة الذين اتهموه بالخروج على الدين فسجن في أحد الأديرة وظل هنالك حتى مات .

ميشيل بوديه :

وفي أوائل القرن السابع عشر قام مؤرخ إفرنسي بارز هو (ميشيل بوديه Michel Baudier) فقال إنه لا يريد أن يقدم إلى القراء كتاباً من كتب الجدل الديني التي اعتاد رجال الكنيسة نشرها ، بل تاريخاً شاملاً لحياة محمد (ﷺ) وفي الواقع فإن كتابه قد تضمن معلومات كثيرة عن الرسول وعن الإسلام ، وكان له تأثير كبير في البلاد الأوربية حتى تعددت طبعاته . إلا أن (بوديه) كان بعيداً كل البعد عن الحياد العلمي . فهو من الكاثوليك المتعصبين ، وقد استقى معلوماته من المصادر الكنائسية ، فنقلها دون أي نقد لأن غايته إنما كانت الطعن في « نبي الأتراك المزيف » ، كما كان الأوربيون يسمون الرسول عليه السلام . ولا ننس أن الأتراك العثمانيين كانوا في ذلك

المهد مازالوا يهددون قلب أوربة ، ويثيرون الخوف في نفوس الأوربيين . ولذلك جعل عنوان كتابه : « تاريخ ديانة الأتراك » (Histoire de la Religion des Tures) (Paris 1925) . مثلما تكلم قبله (بوستل) على « جمهورية » أو « حكومة الأتراك » .

إن الشيء الجديد في كتاب (بودبه) هو ذكره بالتفصيل لقسم من الوقائع التاريخية عن حياة الرسول ، وإن كان قد اختار ما يعتقد أن فيه مجالاً للطعن ، ثم أضاف الى ذلك كثيراً من الأساطير السخيفة والمزاعم الوقحة . وعند البحث في تعاليم الإسلام يستشهد (بوديه) بكثير من الآيات القرآنية التي ترجمها إلى الفرنسية ، ولكنه وجه اهتمامه إلى الآيات التي فيها ذكر للمسيحية فادعى مخالفتها لما ورد في الكتاب المقدس .

أدوارد بوكوك :

تشير كل الدلائل إلى أن الأوربيين أخذوا في القرن السابع عشر يشعرون بضرورة الرجوع إلى المصادر العربية نفسها ليستطيعوا دراسة حياة محمد بصورة علمية — موضوعية ، وليعرفوا تعاليم الإسلام معرفة صحيحة . وكان ينتظر من المستشرقين الذين احتلوا منابر التدريس في الجامعات الكبرى إذ ذاك أن يقوموا بهذه المهمة . ولكن من الغريب أن يكون أول كتاب ينشر لهذه الغاية هو (تاريخ مختصر الدول) . فإن مؤلف هذا الكتاب (أبا الفرج غريغوريوس بن اهرون الملطي) « نسبة إلى (ملاطية) في الأناضول ، هو من رجال الكنيسة وعلماء اليعاقبة . وكان أبوه يهودياً ، ثم اعتنق المسيحية ، ولذلك لقب (بابن العبري) (Bar Hebraeus) واشتهر بهذا الاسم بين العرب ، بينما عرف عند الأوربيين باسم (أبي الفرج) . وقد عاش في القرن السابع الهجري (٦٢٤ — ٦٨٥) أي في عهد غارات الصليبيين

والمغول ، واتصل بزعيم المغول (هولاكو) الذي عينه رئيساً لأساقفة السريان اليعاقبة في الولايات الشرقية ، فقام بنشر المذهب اليعقوبي ، وأسس كثيراً من الكنائس ، كما يذكر هو في كتاب آخر له عنوانه (تاريخ الكنائس السريانية) . وعلى كل فهو من الكتاب المتأخرين الذين اقتصروا على النقل والتلخيص عن القدماء : وليس لكتابه ، الذي ألفه بالعربية والسريانية ، قيمة تاريخية كبيرة عدا ما تضمنه من أخبار مدسوسة مثل فرية حرق مكتبة الإسكندرية بأمر من عمر بن الخطاب .

لم يكن عبثاً أن يقدم المستشرق الانكليزي المشهور (أدوارد بوكوك Edwar Pocock) [١٦٠٤ — ١٦٩١] على اختيار هذا الكتاب ، فقام بنشر النص العربي مع ترجمته إلى اللاتينية ، وأضاف إليه كثيراً من التعليقات والهوامش والملاحظات (في سنة ١٦٦٣) . ثم تكرر طبع الكتاب في أوربة ، وترجم في القرن الثامن عشر إلى اللغة الألمانية .

كان (بوكوك) قد درس اللاهوت في جامعة (أوكسفورد) ، وتعلم العربية ثم عُيّن قسيساً للجالية الإنكليزية في حلب ، حيث أقام مدة خمس سنوات ، واتصل بعلماء المدينة ، وتوسع في دراسة اللغة العربية . وفي سنة ١٦٣٦ استدعي إلى جامعة (أوكسفورد) استاذاً للغة العربية . وقام برحلة ثانية إلى الشرق لجمع المخطوطات . وفي طريق عودته اجتمع في (استانبول) سنة ١٦٤٠ برجل الدولة الهولندي (غروتيوس Grotius) الذي كان يعيش منفياً هناك ، وبحث معه في مشروع ترجمة رسالة (غروتيوس) عن « حقيقة الديانة المسيحية » إلى اللغة العربية ونشرها في الشرق .

لقد كان (بوكوك) ، مثل غيره من المستشرقين في عصره ، يهدف إلى التبشير بالمسيحية والدفاع عنها . ولم يكن الأوربيون عامة يهتمون في تلك الأيام بالدراسات الشرقية والاطلاع على عادات الشرقيين وأخلاقهم مما

يساعد على فهم أعمق للبيئة التي حدثت فيها القصص المذكورة في الكتب المقدسة ، وبالتالي مما يفيد في تفسير هذه الكتب . ولما احتدم الجدال والنزاع بين الكاثوليكية والبروتستانتية في القرنين السادس عشر والسابع عشر أسرع الطرفان المتخاصمان إلى استخدام الدراسات الإسلامية وسيلة للطعن بعضهم في الآخر .

هوتنغر :

يتجلى لنا هذا القصد خاصةً في كتاب المستشرق السويسري المعروف (يوهان هاينريخ هوتنغر Johann Heinrich Hottinger [١٦٢٠ — ١٦٦٧] عن « تاريخ الشرق » الذي نشره في زوريخ سنة (١٦٥١) والذي يتكلم فيه على حياة محمد وعلى تعاليم الإسلام . وكان (هوتنغر) قد درس اللغات الشرقية في (غوتنغن) بألمانية و (ليدن) بهولندة ثم تولى تدريس تاريخ الكنيسة واللغات الشرقية في (زوريخ) . وقد حاول في كتابه « تاريخ الشرق » أن يقدم وصفاً دقيقاً لبلاد الشرق وحياة سكانها من كل النواحي ، وتوسع نسبياً في رواية تاريخ العرب ، ولا سيما حياة الرسول (ﷺ) وسيرة الصحابة . ويلاحظ أنه استفاد من مؤلفات المستشرقين قبله وزاد عليهم . وقد خصص الفصل السادس كله من كتابه للبرهان على أن الحجج التي يأتي بها الكردينال (بلارمين Bellarmin) اليسوعي في كتاب الصلوات للدفاع عن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية هي مقتبسة عن المذاهب الإسلامية . وكان (هوتنغر) إنما يرد بذلك التهمة ذاتها التي حاول الكاثوليك إلصاقها بالعقيدة البروتستانتية .

ولا يغفل (هوتنغر) عن تذكير القراء بأن كتابه يهدف قبل كل شيء إلى « معارضة الإسلام ومقاومة سيطرة الأتراك » ، لأن هذه الصبغة الدينية —

كان من شأنها أن تزيد في رواج الكتاب . وفي الواقع فاننا نراه ، كلما اضطر إلى ذكر شيء من فضائل الرسول وأصحابه ، يسرع فيتبع ذلك بسيل من الشتائم خوفاً من أن يتعرض إلى النقد واللوم . ولابد من الإشارة إلى أن كتاب (هوتنغر) ظل يعتبر لدى الأوربيين من أهم المراجع عن تاريخ العرب لمدة طويلة من الزمن .

نشر القرآن وترجمته :

بعد الغارة الصليبية الأولى رأى رجال الكنيسة أن استيلاء الأوربيين على البلاد المقدسة لم يأت بالنصر الحاسم ، ولم يؤد إلى اعتناق المسلمين للمسيحية ، بل على العكس من ذلك قد نتج عنه أن تركت حضارة المسلمين وعاداتهم وطريقة معيشتهم تأثيراً ملموساً في الصليبيين . عند ذلك قامت بعض الأصوات تدعو الى ضرورة استخدام الوسائل الفكرية في محاربة الإسلام .

وكان في مقدمة هؤلاء (بطرس المحترم Petrus Venerabilis [١٠٩٢ - ١١٥٦] الذي أوفد في عام ١١٤١ إلى إسبانية لتفقد رهبان جماعته والتوسط بالصلح بين (الفونس السابع) ملك (قشتالة) و (الفونس الأول) ملك (آراغون) وبذلك سنحت له الفرصة للاطلاع على المناقشات بين المسلمين والمسيحيين في إسبانية وعلى سياسة الموحدين الدينية فتيقن « أنه لا سبيل إلى مكافحة العقيدة المحمدية إلا بالحجج العقلية وقوة المنطق ومظاهر الحب » حسب قوله . ورأى أن الشرط الأول لاتباع هذه الطريقة هو معرفة آراء الخصم جيداً . لذلك قرر العمل على ترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية .

وقد اجتمع في إسبانية برجلين من رجال الدين المسيحي همـــا : (روبرتوس كيتينزيس Robertus Ketenesis) الانكليزي و (هرمانوس دالماتا Hermanus Dalmata) النمساوي ، اللذان كانا يعرفان اللغة العربية ويدرسان

علم الفلك واستطاع استمالتها لتحقيق مشروعه بعد أن وعدهما بمكافأة كبيرة . فتولى (كيتينزيس) ترجمة القرآن بينما قام (دالماتا) بنقل ثلاث رسائل جدلية من العربية إلى اللاتينية . والرسالة الأولى تتضمن أجوبة الرسول على أسئلة عالم يهودي اعتنق الإسلام ؛ والثانية ، التي تنتهي سلسلة الرواة فيها إلى (كعب الأحبار) ، عبارة عن عرض أساطيري لنسب الرسول وولادته وطفولته ؛ والثالثة تشتمل على خلاصة للتاريخ الإسلامي حتى مقتل الحسين .

ولم تنشر هذه الترجمة للقرآن والرسائل الثلاث إلا بعد (٤٠٠) سنة إذ قام (تيودور بيبلياندر Theodor Bibliander) ، أحد علماء اللاهوت السويسريين بطبعها في مدينة (بال) عام ١٥٤٣ ، ثم أعيد الطبع في سنة ١٥٥٠ . وهذه الترجمة يشوبها كثير من الأخطاء ، وهي لا تتقيد بالأصل في تركيب الجمل وترتيبها ، ولا تراعي خصائص أسلوب القرآن وتقتصر في الغالب على محاولة التعبير بصورة مجردة عن المعاني الواردة في مختلف مقاطع السور .

ويبدو أن الكنيسة لم تكن ترغب في نشر نص القرآن أو ترجمته دون الرد عليه . لذلك نرى أن أول طبعة لنص القرآن الكامل التي نشرها (باغانيني Paganini) في البندقية سنة (١٥٣٠) قد أحرقت جميع نسخها في الحال بأمر من البابا (بولس الثالث) . وقد أصدر البابا (اسكندر السابع) أمراً يمنع فيه طبع نص القرآن أو ترجمته مدة توليه البابوية (١٦٥٥ — ١٦٦٧) ولم يجسر القسيس الألماني (ابراهام هينكلمان Abraham Hinckelmann) في (هامبورغ) على نشر طبعة كاملة للقرآن إلا في سنة (١٦٩٤) . وقد قدم لها بكلمة يدافع فيها عن نفسه قائلاً : «من الضروري أن نعرف القرآن معرفة دقيقة إذا أردنا مكافحته وتمهيد السبيل لانتشار المسيحية في الشرق ...»

عدا أن اللغة العربية قريبة من اللغة العبرية ، فهي ضرورية لفهم الكتاب المقدس ... »

عندئذ رأى البابا (اينوسنس الحادي عشر) أنه من الأفضل أن يتولى أحد رجاله نشر نص القرآن مع ترجمته والرد عليه في وقت واحد ، فعهد بذلك إلى الراهب (ماراتشي) .

«المرعشي» :

كان هذا الراهب يرجع بأصله إلى سورية واسمه هو (المرعشي) . ولكنه عاش في إيطاليا بمقر البابوية وعرف باسمه الطلياني المحرف قليلاً عن العربية (لودوفيقو ماراتشي Ludovico Marracci) . وقد نشر في روما سنة ١٦٩١ كتابه « في الرد على القرآن » ثم أتبعه بالنص العربي مع الترجمة اللاتينية والتعليقات . وهو يقول إنه قضى (٤٠) عاماً في دراسة القرآن وكتب التفسير العربية ليستطيع محاربة الإسلام بأسلحته نفسها . ولا شك في أن المرعشي كان يعرف اللغة العربية معرفة جيدة ولذلك ظل المستشرقون يعتمدون عليه في العصور التالية . وقد قدم لكتابه « في الرد على القرآن » بترجمة حياة الرسول مستنداً إلى المصادر العربية . وها كم ما يقوله في الاحتجاج لعمله ، وهو ما يكرره جميع المستشرقين :

« لو أردت وصف حياة (محمد) حسب رواية كتابنا لتعرضت إلى سخرية المسلمين . فإن هناك اختلافاً كبيراً بين ما نتناقله نحن عن (محمد) وبين ما يرويه المؤرخون المسلمون ، حتى أن القارىء لا يكاد يصدق أن الكلام في الحالتين يدور حول الشخص ذاته . لذلك سوف أتبع المؤرخين المسلمين ، ليس لأني أعتقد بصدق كل ما يقولونه ، بل لأننا إذا أردنا مكافحة أعداء الدين لا بد لنا من أن نحاربهم بأسلحتهم . أضف إلى ذلك أن الكثيرين من كتابنا

يذكرون أموراً عن (محمد) لا يمكن أن تثير لدى المسلمين إلا السخرية ، ولا تزيدهم إلا تمسكاً بعقائدهم الباطلة . »

بعد هذه المقدمة هل يعقل أن يصدر المؤلف حكماً عادلاً ، منصفاً على الرسول (ﷺ) ؟

ريلاند :

منذ أواخر القرن السابع عشر ظهر اتجاه جديد في الدراسات عن الإسلام يتمثل لنا بصورة خاصة لدى المستشرق الهولندي (هادريان ريلاند Hadrian Reland) [١٦٧٦ — ١٧١٨] ، أستاذ اللغات الشرقية في جامعة (اوترخت) . وكتابه (في الديانة المحمدية De religione Mohammedica) الذي نشر سنة ١٧٠٥ وأعيد طبعه بعد سبع سنوات ، يعتبره المستشرقون الدراسة العلمية الأولى للدين الإسلامي وللسيرة النبوية .

إن الكتاب عبارة عن خلاصة للعقائد الإسلامية ، باللغتين العربية واللاتينية ، حاول فيه المؤلف أن يصحح الآراء الشائعة لدى الأوربيين ، والغريبة جداً ، عن الإسلام .

وقد أثار الكتاب ضجة كبيرة ، واهتماماً زائداً ، واتهم المؤلف بأنه يقصد الدعاية للاسلام . ولا حاجة إلى القول بأنه كان ، على العكس ، يريد الدفاع عن المسيحية . وعلى الرغم من أن الكنيسة الكاثوليكية وضعت الكتاب في قائمة المؤلفات المحرمة فقد تُرجم إلى اللغات الألمانية والإنكليزية والفرنسية والهولندية والإسبانية . وظل المستشرقون مدة طويلة يعتمدون عليه في أبحاثهم عن الإسلام .

وتتجلى إلينا وجهة نظر (ريلاند) في مقدمة كتابه التي يتساءل فيها : « هل يعقل أن يعتنق الملايين من البشر الديانة الإسلامية لو كانت منافية العقل وسخيفة كما يدعي المؤلفون المسيحيون ؟ » ثم يضيف قوله : « لندع

المسلمين أنفسهم يصفون لنا ديانتهم . ألا ترى أن التعاليم اليهودية والمسيحية قد شوهت من قبل الوثنيين ، والتعاليم البروتستانتية من قبل الكاثوليك ؟ إنه لا يمكن معرفة حقيقة أي ديانة بالاستناد إلى أقوال خصومها . إننا جميعاً بشر ، أي كائنات معرضة إلى الخطأ ، كثيراً ما نستسلم إلى أهوائنا في المسائل الدينية خاصة . ثم كيف يجوز أن نحاول مجادلة المسلمين دون أن نعرف عقائدهم معرفة جيدة ؟ وها هي الفرص المناقشة المستثيرة تزداد يوماً بعد يوم بسبب نمو العلاقات واتساعها بين الأوربيين والمسيحيين في تركية وإفريقية وفارس والهند الهولندية . . ، حيث نشاهد مع الأسف الكثيرين من المسيحيين يلطخون اسم المسيحي بالعار . . . » وهو يخشى أن توجه إليه التهم بسبب هذه الدراسة . ولكنه لم يقبل أن يرجع عن هدفه . « فالحقيقة يجب البحث عنها مهما كانت المصاعب . لذلك أريد في كتابي هذا وصف الديانة المحمدية ، ليس كما تبدو لنا من خلال ضباب الجهل وخبث البشر ، بل كما تدرس حقاً في مدارس المسلمين ومعابدهم . . . » ويختم (ريلاند) مقدمته قائلاً :

« إذا أراد الناس ، رغم كل ما قلته ، أن يتمسكوا بالخرافات السخيفة فذلك شأنهم . إن تجارب الحياة تبرهن لنا كل يوم على أن الناس ينقادون بسهولة إلى الأحكام السابقة ، المتوارثة وأنهم يفضلون الخداع والغش على معرفة الحقيقة . . . » .

الدكتور كامل عياد

❋❋❋